منابع النيل

حسب عقيدة قدماء المصريين وتقاليدهم

لأنطون زكري
تمة المقال

قال صاحب الأقاليم السبعة إن النيل يخرج معه من جبل القمر من عشر عيون ، خمس تجتمع في بطيحة ، وخمس في بطيحة أي مكان منبطح من الأرض ثم يجتمع بعد ذلك الماءان ، وذكر صورة جبل القمر ، وإنه مقدس وعلى رأسه شرافات (شرفات عالية)

حكى ذلك عنه الشيخ العلامة « شهاب الدين بن حماد » رحمه الله تعالى في جزئه الذي جمعه في النيل ، وهو جزء لطيف جداً . وحكى فيه عن المسعودي أنه قال في كتابه (مروج الذهب) وأصل النيل ومنبعه من تحت جبل القمر ، ومبدأ ظهوره من إثنى عشر عيناً . وجبل القمر خلف خط الاستواء ، يعني الذي يستوي فيه الليل والنهار ، وأضيف إلى القمر ، لأنه يظهر تأثيره فيه عند زيادته ونقصانه بسبب النور والظلمة والبدوي والمحاق .

قال المسعودي فتنصب تلك المياه الخارجة من الاثني عشر عيناً إلى بحيرتين هناك ، وهو معنى كلام صاحب الأقاليم في بطيحة .

قال : ثم يجتمع الماء منها جارياً . فيمر برمال هناك وجبال ثم يخترق أرض السودان مما يلي بلاد الزنج ، فينبع منه خليج ينتهي إلى بحر الزنج[1] انتهى ما أردته منه .

ومن قال إنه ينبع من جبال القمر السرج الكدي ، كما نقله عنه ابن حماد في جزئه المذكور ، فظهر بذلك أن أكثر المؤرخين على هذا القول ، كما أشار اليه صاحب الأصل بقوله فيما تقدم ذكر غير واحد من المؤرخين .

وقال صاحب « الكردان » : وفي أصل النيل أقوال للناس حتى ذهب بعضهم إلى أن مجراه من جبال الثلج ، وهو بجبل (ق) ، وأنه يخرق البحر الأخضر[2] بقدرة الله تعالى ويمر على معادن الذهب والياقوت والزمرد والمرجان ، فيمر ما شاء الله الى أن يأتي بحيرة الزنج .

---

(١) ويقيم الزنوج في الجزء الشرقي من أفريقيا الشرقية بين زنزبار .

(٢) وهو جغرافيو العرب النيل الشرقي تارة البحر الأزرق وتارة البحر الأخضر .

قال الملكي لهذا القول ولولا ذلك يعني دخوله في البحر الملح، وما يختلط به منه، لما كان يستطاع أن يشرب منه لشدة حلاوته.

وقال قوم: ممدود من خلف خط الاستواء بإحدى عشرة درجة. وقال قوم ممدوه من جبال القمر، وأنه ينبع من اثني عشر عيناً. انتهى ما أردته منه.

وقال ابن عماد في جزئه المذكور، وذكر بعضهم أن سائر مياه الأرض وأنهارها يخرج أصلها من تحت الصخرة[1] بالأرض المقدسة، والعلم عند الله تعالى. انتهى. ولم يبين قائل ذلك، وقد بينه في موضع آخر من جزئه المذكور فقال:

وذكر الثعالبي في قصص الأنبياء أن جميع مياه الأرض يخرج أصلها من تحت الصخرة. انتهى، ويدخل في إطلاق هذا القول النيل وغيره.

وذكر ابن عماد في جزئه المذكور عند كلامه في الاستدلال على أفضلية النيل على غيره من الأنهار، أن النيل يخوض في البحر الملح، ولا يختلط به، بل يجري تحته متميزاً عنه كالزيت مع الماء، قال وهذا يظهر لركاب البحر في بعض النواحي فيستقون منه الشرب وذلك في أماكن معروفة. انتهى.

ورأيت في مناقب الإمام الأعظم والحبر المحترم الشافعي رضي الله عنه لأبي القاسم ابن قاسم المقدسي حكاية عنه تدل على أن النيل يمر ببلاد الهند.

وكان ابن طولون قد سأل شيخاً كبيراً من علماء القبط عمره مائة وثلاثون سنة عن أشياء في أحوال مصر أين منتهى النيل في أعلاه، فقال البحيرة التي لا يدرك طولها وعرضها وهي تحت الأرض التي الليل والنهار فيها متساويان طول الدهر، وهي تحت الموضع الذي يسمى عند المنجمين الفلك المستقيم. قال وما ذكرت فمعروف غير منكور. قلت قد اختصر صاحب الأصل هذه الحكاية، وقد نقلها الشهاب بن عماد في جزئه المذكور عن المسعودي فقال: قال المسعودي: «وكان أحمد بن طولون في سنة نيف وستين ومائتين بلغه أن رجلاً بأعلى مصر من الصعيد له ثلاثون ومائة سنة، من الأقباط، ممن يشار إليهم بالعلم، وإليه علامة بمصر وأرضها في برها وبحرها وأجنادها وأجناد ملكها، وأنه ممن سافر الأرض، وتوسط الممالك، وشاهد الأمم في أنواع البيادين والسودان، وأنه ذو معرفة بأنواع هيئات الأفلاك وأحكامها. فبعث إليه أحمد وأخلى له نفسه ليالي وأياماً كثيرة يسمع كلامه وإيراده وجوابه فكان فيما سأله عن طول الأحابيش على النيل وممالكهم

(١) معبد الصخرة في جامع سيدنا عمر بمدينة أورشليم.

قال : لقيت من ملوكهم ستين ملكاً في ممالك مختلفة ، كل منهم ينازع من يليه من الملوك وبلادهم حارة يابسة . قال فأمنتهى النيل في أعلاه . فقال البحيرة ؟ الى آخر ما ذكره عنه صاحب الأصل . والله أعلم .

وقال أبو محمد عبد الله بن أحمد الأسواني في كتاب أخبار النوبة من أخبار النيل ، وما شاهدت منه ومن تشعبه وتقسيمه على سبعة أبحر من بدء علوه واجتماعه ببلدة مقره ، وتعطفه تعطفاً عجيباً قبلي مدينتهم وافتراشه ، وإنه يجري بجري « دنقله » حتى يكون ما بين شرقيه وغربيه نحو اربعين فرسخاً ، ويتضايق بعد ذلك حتى يكون عرضه دون الخمسين ذراعاً ، وتكون الجنادل معترضة في غير موضع منه حتى يكون انصبابه في بابين أو ثلاثة أبواب .

قال : وقلعة أصفوف أول الجنادل الثلاثة وهي أشد الجنادل صعوبة لأن فيها جبلاً معترضاً من الشرق الى الغرب في النيل ، والماء ينصب من ثلاثة أبواب ، وربما يرجع الى بابين عند انحداره ، شديد الخرير عجيب المنظر لشخور الماء من علو الجبل وقبليه مرسى حجارة في النقل نحو ثلاثة أرد الى قرية تعرق يسير وهي آخر قرى ميرس وأول بلاد مقره .

« قال أبو محمد عبد الله بن محمد الأسواني في كتاب اخبار النوبة عند ذكر ناحية يقرن مانصه » :

« وما رأيت على النيل ناحية أوسع منها وقدرت ان سعة النيل فيها من المشرق الى المغرب مسيرة خمس مراحل [1] الجزائر تقطعه والأنهار منه تجري بينها على أراض منحطة وقرى وعمائر حسنة . انتهى »

قلت وطريق الجمع بين هذا وبين ما تقدم نقله من صاحب خزانة التاريخ أن عرضه مختلف بحسب بلاد النوبة أيضاً . ففي بعضها كما قاله صاحب خزانة التاريخ أعني ثلاثة أميال فما دونها . وفي بعضها كما قال الأسواني أعني خمس مراحل وهذا جمع حسن ، ولا مانع من ذلك لأن سبيله المشاهدة والله أعلم .

قالوا ومن وراء مخرج النيل الظلمة [2]

---

(١) أي عبارة عن مائة وخمسين ميلا .

(٢) قيل الوصول الى سلسلة الفلك الخرافية توجد فيها مظلمة تمنع الناس للزور وربما فقد الزائف هذه البلدة القريبة .

قال ابو الخطاب: وخلف القلمة منبالا . فسبحان العليم. وفي تاريخ ملوك مصر ان الوليد[1] أحد ملوك مصر من العمالقة كان يعبد القمر ، وهو أول من تسمى فرعون وأقام بمصر مدة ثم عن له أن ينظر مخرج النيل ويعرف من أين يأتي فأقام ثلاث سنين يستعد لذلك ، ثم جمع جميع ما يحتاج اليه واستخلف على مصر عوناً ، وتوجه فمرّ على أم السودان وسار في طريقه على ارض الذهب[2] ، وفيها أمة عظيمة ينبت الذهب في تلك الأرض كالقضبان. ثم سار حتى بلغ البطيحة التي ينصب فيها ماء النيل من الأنهار التي تخرج من جبل القمر وراء القمر الذي عمله هرمس[3] ، وصعد على جبل القمر وراء البحر الزفتي الأسود. ورأى النيل يجري عليه كالأنهار الزقاق ، وأتاه من ذلك البحر رواتح منتنة عافاه بسببها كثير من أصحابه ، وذكروا أنهم لم يروا هناك شيئاً ولا قمراً الا نوراً أحمر مثل نور الشمس ، ثم توجه راجعاً الى مصر وأقام بها مدة ، ثم ركب يوماً الى الصيد فظفر به أسد فقتله ودفن في بعض الاهرام وملك بعده الريان وهو فرعون يوسف عليه السلام .

قال الشيخ عماد الدين بن كثير في تاريخه الكبير . وأما ما يذكره بعضهم من أن منبع النيل من مكان مرتفع اطلع عليه بعض الناس فرأى هناك هولاً عظيماً وجواري حساناً وأشياء غريبة، وان الذي اطلع على هذا لم يمكنه الكلام بعد هذا فهو من خرافات المؤرخين وهذيانات الأفاكين

قلت هذا الذي قاله الحافظ بن كثير رحمه الله لعله أشار به الى ما حكاه ابن زولاق في تاريخه عن بعض خلفاء مصر ، أنه أمر قوماً بالمسير الى حيث يجري النيل فساروا حتى انتهوا الى جبل عال والماء ينزل من أعلاه له دوي وهدير لا يكاد يسمع أحدهم صاحبه ، ثم ان أحدهم تسبب في الصعود الى أعلى الجبل لينظر ما وراء ذلك ، فلما وصل الى أعلاه

---

(١) ان الوليد هو ابن سالم الذي ذكره غريغوريوس أبو الفرج في تاريخه المختصر عن الاسر وأنه من ذرية الملك ابن البقار وعقد الاساور الذي جعل أولاده يتوارثون في أدومية الجزيرة لاوض مصر وقبل ضرب الوليد أرض مصر أبينا ابراهيم كان ملوك مصر يلقبون بالفراعنة .

(٢) روى الشريف الادريسي انكان أهالي تكرور بلدة واقعة في نهاية أفريقيا الغربية يعتقدون أن الذهب نبات . وروى أحد كتاب العرب حادثة غريبة في أبها وأثبت أن الذهب نبات في غير أفريقيا . وفي سنة ٣٩٤ هـ . كان محمود بن سبكتجين السلطان الاول من الاسرة الغزنوية يشتو مرة في بلخ فجاءته الاخبار بأن في بعض الجزائر التي قبالها شجرة من الذهب الخالص وان طولها نحو ثلاثة أذرع تحت البنان . ولكن في مصر من عند السلطان مسعود حدثت زلزلة فقلبت هذا الجبل وزال النجم الذهبي . اهـ .

(٣) يعتقد الشرفيون وجود ثلاثة أشخاص معروفين باسم درمس وعاشوا في عصور مختلفة ، وان درمس الذكور هذا ظهر بعد آدم بألف سنة ومشهور ايضاً باسم ادريس . اهـ

رقص وصفق وضحك ثم مضى في الجبل ولم يعد احدا به يعرفون ما شأنه، ثم ان رجلا منهم صعد لينظر فعمل مثل الاول فطلع ثالث، وقال اربطوا في وسطي حبلاً فاذا أنا وصلت الى ما وصلا اليه، ثم فعلت ذلك فاجذبوني حتى لا أبرح من موضعي، ففعلوا ذلك. فما صار في أعلى الجبل فعل كفعلهم فجذبوه اليهم فقيل إنه خرس ولم يردّ جواباً فمات من ساعته، فرجع القوم ولم يعلموا غير ذلك. انتهى.

قال: وقلعة أسندون أول الجنادل الثلاثة وهي أشد الجنادل صعوبة لأن فيها جبلاً معترضاً من الشرق الى الغرب في النيل، والماء ينصب من ثلاثة أبواب، وربما يرجع الى بابين عند انحساره، شديد الخرير عجيب المنظر لاندفاق الماء عليه من علوّ الجبل. وقبليه فرش حجارة في النيل نحو ثلاثة أبرد الى قرية تعرف بيسير، وهي آخر قرى سرسين وأول بلاد مقره

قال الوطواط الكتبي في كتاب مباهج الفكر إن طول مسافته ثلاثة آلاف فرسخ ونيف. وقيل إنه يجري في الخراب أربعة أشهر، وفي بلاد السودان شهرين، وفي بلاد الاسلام شهراً. قلت هذا القول موافق لما جزم به ابن زولاق في تاريخه.

وذكر صاحب درر التيجان أن من ابتدائه الى انتهائه اثنين وأربعين درجة وثلثي درجة كل درجة ستون ميلاً، فيكون طوله ثمانية آلاف وستمائة وأربعة وعشرين ميلاً وثلثي ميل على الفصل والاستواء، وله تعويجات شرقاً وغرباً فيطول ويزيد على ما ذكرناه. وقال صاحب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق «وبين طرفي النيل مما ثبت في الكتب خمسة آلاف وستمائة ميل وثلاثون ميلاً».

وذكر صاحب خزانة التاريخ: ان طوله أربعة آلاف وخمسمائة وخمسة وسبعون ميلاً، وعرضه في بلاد الحبشة والنوبة ثلاثة أميال فما دونها، وعرضه ببلد مصر ثلثا ميل، ليس يشبهه نهرٌ من الأنهار. وفي تاريخ ابن زولاق ليس في الدنيا نهر أطول مدى من النيل، يسير مسيرة شهر في بلاد الاسلام، وشهرين في بلاد النوبة، وأربعة أشهر في الخراب حيث لا عمارة، الى أن يخرج من جبال القمر خلف خط الاستواء. قلت ما حكاه صاحب الأمثل في تاريخ ابن زولاق، ادعى ابو قبيل الاجماع عليه ولفظه كما حكاه ابن عماد في جزئه المذكور ما نصه: «وأجمع أهل العلم على أنه ليس في الدنيا نهر أطول مدى من النيل يسير مسيرة شهر في الاسلام الى آخر ما تقدم ذكره، وزاد فقال: وليس في الدنيا نهر يصب في بحر الروم والنيل غير نيل مصر. انتهى والله أعلم.

انظر ذكرى